كتب

تضيء المؤرخة الألمانية أوتا فريفرت كيف استُخدم الإذلال وما يولّده من الشعور بالخزي كوسيلة للسيطرة منذ العصور الوسطى، حيث تطوّرت فيها ممارساتٌ جديدةٌ للإذلال في ميادين السياسة والجيش والتعليم المدرسي ووسائل التواصل الاجتماعي

الإذلال من الساحات العامة إلى الإنترنت

كيف تحطّم الجماعةُ الفردَ المختلف

سومر شحادة

تعرض الكاتبة والمؤرخة الألمانية أوتا فريفرت في كتابها «سياسة الإذلال - مجالات القوة والعجز»، الصادر حديثاً عن «دار ممدوح عدوان»، جوانب عديدة للعار الذي يلحق بالأفراد وبالدول، العار الذي تصنعهُ سياسات خاصّة، ومن ثمّ تستثمرهُ في إخضاع الآخرين. الكتاب الصادر بترجمة الأكاديمية هبة شريف عن الألمانيّة، بحثٌ يمتدُّ من عصور التشهير في السّاحات العامّة إلى عصور التشهير عبر الإنترنت، وهو بحثٌ في الكرامة الإنسانية وفي كرامة الأوطان.

بعد تحليل عددٍ كبيرٍ من حوادث عامّة لتشهيرٍ وإذلال، حوادثٌ جرت في الشوارع أو في أروقة الدبلوماسية، عبر مقاطع مصوّرة تداولها روّاد الإنترنت لاستعراض أخطاء الآخرين وتوبيخهم، وتلقينهم دروس الطاعة، تخلص الباحثة إلى حقيقة أنّ الإنسان لم يغادر العصور الوسطى بعد، حيثُ كانت تسود وسائل عقابيّة قائمة على امتهان كرامة الإنسان أمام أبناء جنسهِ، وما تزال أساليب القرون الوسطى متخفيّةً في المؤسسات وفي المجتمعات، من خلال التنمّر، والإذلال الناعم.

تعود فريفرت إلى ممارسات الإذلال في أوروبا، على نحو خاص، في القرن الثامن عشر، وتستعيد كذلك ممارساتهِ في ثقافات أخرى غير مركزية. إنّها ترتّب ذلك الإرث البشري لصناعة الإذلال وتشير إلى التغيّر الذي أعقب الحرب العالمية الثانية. لكن ما تزال القوانين التي تناهض الإذلال في طور النّمو، فالإرث العميق من العار الذي ساد عصور البشرية أكثر حضوراً، خصوصاً أنّ الدول ما تزال تمارس سياسات الإذلال البينية. وكما من المعروف، بوجود الحروب والوحشية يتعزّز فضاء الإذلال. وتستشهد الباحثة بحوادث شهدتها نزاعات عرقية أو دينية، حيثُ تكون ممارسات الإذلال بداهةً لدى المرتكبين.

مشهد العار

تحدّد الباحثة البنى التي تجعل من موقف ما موقفاً مخزياً، وبالتالي، ما يجعله موقفاً تأديبياً. إذ إنّ المواقف التي تحقّق العار، لا تحدثُ في الخفاء، وإنّما يكون الجمهور أحد أطراف العلاقة التي تجمعُ من يتعرّض للإذلال مع من يمارسهُ. وعلى ضوءِ ذلك، فإنّ الجمهور الذي يرى مشهد العار لربما يتعرّض، بأفرادهِ، إلى الرّدع. على الرغم من أنّ جمهوراً من البشر يُشاهد امتهان كرامة إنسان، تكون إنسانيتهُ موضعَ تساؤلٍ أيضاً. الأمر الذي تنبّهت لهُ القوانين في الأزمنة الحديثة، فالعقاب الذي كان يحدث على الملأ أمام جمهور غفير، بات يحدث في السجون.

كما يُمارَس الإذلال من شخص قوي صاحب سلطة على شخصٍ ضعيفٍ وخاضع، إذ تتكشف في مفهومِ الإذلال أشكال علاقة السيد/ التابع كافةً؛ الرجل/ المرأة، الأب/ الابن، الدولة/ المجتمع، وأخيراً بين الدول المنتصرة والمهزومة في الحرب، ما يتجسّد في الاتفاقات التي تلي الحروب. وتذكر الباحثة: «الذي يجعل الخزي شيئاً بغيضاً... الإدراك المؤلم لسلطة وقوة الفضح العلني، وهو موقف لا يمكن التخلّص من آثاره، فهو يدخل تحت الجلد، ويظلّ هناك داخل جسد من تعرّض للخزي».

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول، وتعرض الباحثة في الفصل الأول ممارسات الإذلال من أعمدة ومقاعد التشهير، والضرب والتوبيخ العلني، وحلق شعر النساء والوسم بالنار، وارتداء الأطواق أو أحجار العار والتجريس، كلها أساليب غابرة تهدف إلى إهانة المعاقب.

وقد كانت العقوبة في العصور الوسطى مرتبطة بالأخلاق، إذ كثيراً ما كانت تعاقب الزوجات المتسلّطات بالتجريس، ومن كان يخرج عن عُرف الجماعات يوصم بالعار، فالإذلال العلني هو سلاح سلطة الجماعة لتحطيم الفرد المختلف.

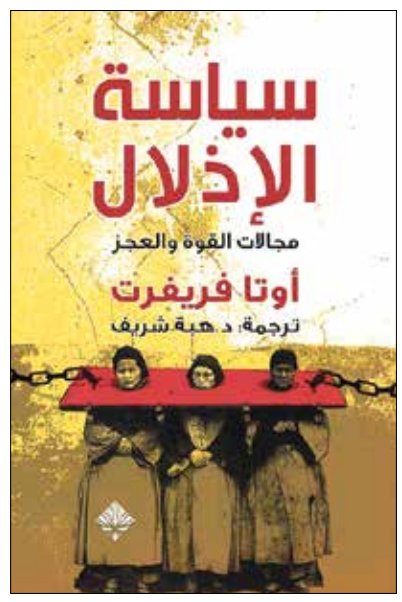

بدأت الانتقادات تجاه التشهير منذ القرن الثامن عشر أيضاً

هناك قوّة قد يتسبّب الإذلال في إشعالها لدى المعاقَب

نظام معياري جديد

بدأت الانتقادات تجاه عمود التشهير منذ القرن الثامن عشر أيضاً، لأنّه لا يصلح شأن الإنسان المعاقب، وإنّما يهدر كرامته. وبدأت السجون تأخذ دورها كمؤسسات عقابية غير علنية. وفي القرن التاسع عشر، بدأ الاعتقاد يسود بأنّ كل عقوبة تهدر شرف الإنسان تنحدر بهِ إلى الحيوان، وبدأ مفهوم «الكرامة الإنسانية» بالظهور في التشريعات، على الرغم من مراعاة الطبقات الاجتماعية واستمرار التمييز بين النُساء والرجال.

تشير المؤرخة الألمانية إلى استعادة النازيين لممارسات التشهير والفضح بهدف «ترسيخ نظام معياري جديد» يمنع اندماج اليهود وبناء علاقاتٍ معهم من أجل الوصول إلى النُقاء العرقي، وهذا المثال يوضّح أيما توضيح قدرة سياسات الإذلال على ضبط سلوك الجماعات. في الفصل الثاني تستعرض المؤرخة أمكنة الإذلال في المدارس والأخويات المغلقة والجيوش، في مجموعات الأقران وعلى الإنترنت أمام الأغراب أيضاً.

وتظهر الباحثة عبر الاستشهاد بالعقوبات المدرسية أنّ الخزي جزءٌ من الحياة اليوميّة. لا سيما مع تضامن الأهل، لأزمانٍ طويلة، مع العقوبات التي يفرضها المدرّس، إلى جانب اعتبار شعور الكرامة لدى الأطفال شعور غير متطوّر. لكن تغير الحال مع منتصف القرن العشرين، إذ باتت ظاهرة «التنمّر» أحد الموضوعات التي تعالجها كتب الأطفال بكثرة، كي يواجهوا قسوة الآخرين ولامبالاتهم بآثار السلوك والكلمات عليهم.

الكرامة وحسابات القوّة

تأخذ فريفرت الجيش مثالاً عن المؤسسات الشاملة التي تمارس الاحتواء على أعضائها، وذلك باستخدام صنوفٍ عديدة من سياسات الإذلال، فالجيش مؤسسة للتربية العسكرية، وغاية الإجراءات التأديبية الحفاظ على النظام وعلى الروح القتالية للجنود. ترتّب المؤرخة التشهير بدءاً من الجرائد إلى التلفزيون عبر برامج الواقع انتهاءً بوسائل التواصل الاجتماعي التي تراها وسائل «مضادّة للتواصل الاجتماعي»، حيثُ انهارت فيها قدرة الفرد على مواجهة حوادث التنمّر التي قد تطاولهُ. وتعيد الباحثة في الفصل الأخير بحثها إلى القوانين، لكنها هنا تتحدث عن قوانين لتنظّم علاقات الدول في ما بينها. إذ يُمارَسُ بين الدول ما يمارس بين الأفراد، خصوصاً في علاقات البعثات، فإهانة سفيرٍ بلدٍ ما هو إهانة لما يمثّلهُ.

كما تضرب عدداً كبيراً من الأمثلة في هذا السياق، وتحدثنا عن اقتراب دول من إعلان الحروب بسبب مواقف بروتوكولية، إذ إنّ الكرامة بين الدول تُقاس بالقوة، ومن لا يرفض الإهانة يعدُّ ضعيفاً، وبالتالي تهمّش مصالحه. كما تشير في جانب آخر إلى حالات الاعتذار التي قامت بها دول استعمارية عن ماضيها القاتم. وتضرب مثالاً لذلك زيارة مستشار ألمانيا الغربية فيلي برانت إلى بولندا (1970)، وركوعهِ من غير تخطيط مسبق، كما تقول، أمام نصب تذكاري لضحايا النازية، وقد بات مثلاً يُحتذى في ثقافة الاعتذار الألمانية. بالطبع لا يغيب عنّا الابتزاز الذي مارسه ويمارسه الكيان الصهيوني باسم «الهولوكست» وغياب أي اعتذار ألماني للشعب الفلسطيني، سواء عما لحق به من دعم ألمانيا لـ«إسرائيل» أو كنتيجة للسياسات النازية وتأسيس الكيان الصهيوني على أثرها.

ينطوي كتاب المؤرخة الألمانية على تلميح إلى تلك القوة التي قد يتسبّب الإذلال في إشعالها لدى المعاقَب، فالصفعة التي طاولت البوعزيزي، صارت ثورةً في بلدهِ. والإذلال قد يحطّم نفوساً، لكنه أيضاً قد يشعل بالغضب نفوساً أخرى، كي تنتفض وتستعيد إنسانيها.

(كاتب من سورية)

عمل لـ أندريا غارلاند، 294 × 1381 × 9 سم، مواد مختلطة، 2019

العواطف في التاريخ

تركّز أوتا فريفرت (1954) في دراساتها على التاريخ الاجتماعي والثقافي، وتأثير السياسات مثل التجنيد العسكري والعادات والسلوكيات الجماعية على المجتمعات البشرية اليوم، وهي أستاذة فخرية في «جامعة برلين الحرّة». أصدرت عدّة مؤلّفات منها «النساء في التاريخ الألماني: من التحرّر البرجوازي إلى التحرّر الجنسي»، و«العواطف في التاريخ»، و«أمّة في الثكنات: ألمانيا الحديثة، التجنيد العسكري والمجتمع المدني».

نظرة أولى

عن «دار الآداب»، صدرت مؤخراً ترجمة جديدة إلى العربية لكتاب **الاستشراق** للمفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد. ترجمة أنجزها محمد عصفور، بعد ترجمات كل من كمال أبو ديب ومحمد عناني ونذير جزماتي. في كلمة الناشر جرت الإشارة إلى أن هذه الترجمة جاءت بطلب من سعيد «بضرورة أن يحظى هذا العمل بترجمة ميسّرة تختزل الكثير من الصعوبات التي يمكن أن يواجهها القارئ العربي» حيث إن الترجمات السابقة، على أهمّيتها، كانت موجّهة أكثر إلى قرّاء متخصّصين ملمّين بالأجهزة المفاهيمية التي يعتمدها إدوارد سعيد في كتابه المرجعي هذا.

كل المدن أحلام عنوان عمل جديد للشاعر المصري جرجس شكري يندرج ضمن أدب الرحلة صدر مؤخراً عن منشورات «آفاق». نقرأ من مقدّمة الكتاب: «أتجوَّل بين الأوراق، أو قُل بين المُدن، أستعيد هذه الرحلات، تركض مخيلتي في هذه المُدن بعد أن توقّفت الأقدام عن الحركة، فأشعر أنّني سافرتُ مرّة أخرى من خلال الكتابة، وأنّني أزور هذه المدن مرّة أخرى، ألتقي بشرًا، وأشارك في أمسياتٍ، أحلّق في الفضاء، بينما العالم عاطلٌ عن الحركة. فتبدو المُدن أحلامًا عشتُها في الواقع من قبل، والآن أعيشها مرّة أخرى في هذه الأوراق».

يستعرض الباحث عبد القادر محمد الطائي في كتابه **نظرية السلطة المؤسسة** الذي صدر حديثاً عن «دار الشروق للنشر والتوزيع» الدراسات والأعمال الفكرية القانونية والسياسية التي انشغلت بنظريات تعالج أصل الدولة وكيفية نشأتها، وأركانها وخصائصها، وتوزيع وظائف السلطة المؤسسة ومبدأ الفصل بين السلطات وأنظمة الحكم، من خلال الإجابة عن تساؤلات مثل: هل تعّرف الدولة بدلالة السلطة، أم أن السلطة تعرّف بدلالة الدولة؟ وهل مسألة الحكم، أو شكل النظام السياسي وآلية عمله والمؤسسات المرتبطة به تعود للدولة، أم تعود للسلطة في الدولة؟

عن «دار أروقة للدراسات والترجمة والنشر»، صدر حديثاً كتاب **التوراة والحضارة المصرية** للباحث المصري طلعت رضوان. يعود المؤلّف إلى نصوص العهد القديم والمصادر التاريخية ومقارنتها في تناول الصراع بين المجتمع الرعوي الذي يمثّله اليهود وبين المجتمع الزراعي في الحضارة النصرية القديمة، والقائم على أدوات الإنتاج وأنماطه، مبيناً كيف تأثّر هذا الصراع مع تطوّر العلاقات الاجتماعية التي يفرضها كل نمط إنتاجي، واختراع الآلاف المرتبطة بالزراعة، وانعكاس ذلك على صورة كلّ طرف عن الآخر كما دوّنتها النصوص والنقوش الأثرية.

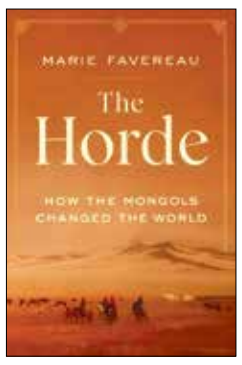

الحشد: كيف غيّر المغول العالم عنوان الكتاب الذي صدر لأستاذة التاريخ ماري فافيرو عن «منشورات بلكناب». يشير الكتاب إلى أن إنجازات المغول تتجاوز الانتصارات العسكرية وقدرتهم الفائقة على تنظيم الجيوش بحسب الصورة المتداولة عنهم، كما يظهرها إرثهم الحضاري في الهند وآسيا الوسطى وأجزاء من روسيا، حيث أقاموا نظام حكم متطور يكافئ بين الإداريين والدبلوماسيين والعلماء وبين النبلاء والقادة العسكريين، وكذلك كانت منظومتهم الاقتصادية التي استفادت من اختراعاتهم في مجال الفلك والصناعة، وساد التسامح الديني بعد تأسيس دولهم.

صدر مؤخراً عن «دار الجنوب» كتاب **محمود بيرم التونسي.. الصورة وفتنة المتخيل** للباحثة التونسية ابتسام الوسلاتي. تعتني المؤلفة في أول فصول الكتاب الأربعة بالصورة الأدبية بين المتخيّل والتمثيل الثقافي في إطار عامّ يتعلّق بالصّوريّات. أما الفصل الثاني فقد استعرضت فيه أطوار حياة محمود بيرم التونسي في مختلف محطاتها، ليدور الفصل الثالث حول الصورة الأدبيّة للأنا وللآخر وتشكلها في آثار محمود بيرم التونسي. وكان الفصل الرابع رصداً لصور التبادل الاجتماعي والقيمي والثقافي بين الفضاءات الثقافية التي عاش بينها.

عن «دار خطوط وظلال»، صدر مؤخّراً كتابٌ بعنوان **الحرب على الفن** للفنّان التشكيلي والناقد الفنّي السوري طلال معلا، وفيه يُقدّم محاولةً للإضاءة على تاريخ الحروب على الفنّ والأعمال الفنّية في مجتمعات وثقافات وأزمنة مختلفة. وُلد معلا في بانياس عام 1952، ودرس الفنّ التشكيلي في إيطاليا، وقدّم مجموعةً كبيرة من المعارض التي أضاء في بعضها على انعكاسات الحرب في بلاده. ومِن إصداراته الأُخرى: «لغز الفن»، و«غروب الفن»، و«الصورة الشخصية»، و«العالم الضال: انحراف الرؤيا في الفنون»، و«تحوُّلات الجسد المبدع»، و«أوهام الصورة».

ضمن سلسلة «تراكت» التي تقدّم مواقف مفكّرين وباحثين من قضايا غير مكرّسة، صدر عن منشورات «غاليمار» كتاب **ما يفعله النضال بالبحث العلمي** لعالمة الاجتماع الفرنسية ناتالي هينيك التي تدرس كيف جرى تكريس الفصل بين تفاعلات الباحثين في الحياة الاجتماعية وبين المواضيع التي يدرسونه حتى بات الاشتغال على مواضيع تتقاطع مع الحياة اليومية للباحثين شبهة ضد الموضوعية. يُذكر أن هاينيك سبق أن نشرت كتاباً قريباً من فكرة هذا العمل وحمل عنوان «ما يفعله الفن بالسوسيولوجيا» الذي تناولت فيه حالة الوصم التي تمنع الفنانين من الكتابة البحثية.